

## مظاهر العبقرية في الحضارة الإسلامية

للأستاذ خليل جمعة الطوال

— ٣ —

ولما أظهر الله الإسلام تنفست هذه الفئات المضطهدة الصمماء، وأخذت تسير بسيرة، وتترسم خطاه، وإذا آنتت فيه إلى ظل نظام عادل، فقد أخذت تؤسس في كل حاضرة من حواضر الإسلام مدارس للعلم ومجالس للعلماء، وأهم هذه المدارس على الإطلاق هي مدرسة الإسكندرية المشهورة.

وباتساع رقعة الإسلام أخذ الخلفاء يستعينون بهؤلاء العلماء على تنظيم شئون إمبراطوريتهم السياسية، ولما ترادفت عليهم — أى الخلفاء — الفتوح، ودانت لهم الأقطار أخذوا يتطلعون إلى موارد العلم والمدنية والثقافة، ولم يفهم قط أن يستعينوا بعلم هذه الطبقات الراقية التي خضعت لسلطانهم، ودخلت في حوزتهم، وعلى ذلك فإننا نستطيع أن نجمل العوامل الرئيسية التي عملت في تنشئة الفكر العربي وإعداده إعداداً علمياً صحيحاً لتلقى الحضارة في خمسة عوامل هامة وهي<sup>(١)</sup>:

أولاً — النساطرة، وقد استمان هؤلاء على نشر أفكارهم في بلاد العرب بتعاليم منتزعة من الفلسفة اليونانية حتى لقد كان كل نسطوري يحكم الضرورة معلماً في الفلسفة اليونانية، وهم إلى جانب ذلك أول مدرسة تهذب فيها الفكر العربي باحتكاكه بالثقافة اليونانية، وأول من خدم الطب في المصور الأولى.

ثانياً — اليعاقبة، وإليهم يرجع الفضل الأول في إدخال الأفلاطونية الجديدة، ومذهب الباطنية في جو الثقافة العربية. ثالثاً — الزرادشتيون في بلاد فارس، وأهم مدارسهم هي مدرسة جنديسابور التي أسسها «كسرى أنوشروان» وكانت تضم طائفة من العلماء الذين شردهم الإمبراطور «بوستيانوس» حين أمر بإغلاق جميع المدارس والهياكل في أئتنا. وكانت

تدرس في هذه المدرسة الكتب اليونانية والسريانية والفلسفة الهندية وآدابها وعلومها، وفي هذه المدرسة أيضاً ازدهر الطب ونما إذ تخلص من ضمط الكنيسة، وتحرر من قيود العلوم اللاهوتية. واشتهر في هذه المدرسة قبل الإسلام الحارث بن كلدة الطيب المشهور، وابنه النضر، وقد ذكره ابن سينا مع الذين هزموا يوم بدر، ثم أسروا وقتلوا على بن أبي طالب صبراً.<sup>(١)</sup>

رابعاً — مدرسة حران الوثنية، ولسنا نعرف مؤسس هذه المدرسة ولا كيفية نشأتها، والذي وصلنا إلينا عن حران هو أنها كانت مثابة لتعاليم الديانة اليونانية القديمة بعد أن طفت عليها المسيحية في العالم اليوناني. والراجح أن حران قد ورثت كثيراً من تعاليم الديانة البابلية القديمة، وأن هذه المدرسة أيضاً قد كانت متأثرة إلى حد بعيد بتعاليم الأفلاطونية الجديدة كما وصفها «فرفوريوس الصوري».

خامساً — المبرانيون، وأهم مدارسهم في صور، وبامبادينا وكانت عاكفة على درس شرائعهم التقليدية، ولئن ورت المبرانيون عن النساطرة نزعة إلى علم الطب إلا أنهم لم يتفقهوا عليهم قط، وقد ذكر «لكلارك» في كتابه تاريخ الطب عند العرب في القرن العاشر ٢٩ طبيباً مسيحياً، على حين لم يذكر سوى ثلاثة من أطباء اليهود وأربعة من وثني حران.

وإلى جانب هذه العوامل الرئيسية التي استمد منها الفكر العربي أسلوب دراسة الحضارتين القديمتين، اليونانية والرومانية، فقد كانت هناك مراكز هامة أخرى للثقافة اليونانية فقد ذكر «ديبل» أنه كان في كل من أنطاكية، والزها، ونصيبين — وذكر أيضاً حران — إبان الفتح الإسلامي مدارس راقية أحسن أسانئها فهم الثقافة الإغريقية، وفلسفة أرسطو، والعلوم والطب المعروفة عند القدماء. وقال أيضاً: «إن خلفاء بني أمية كانوا يرجعون إلى هؤلاء الأسانذة ليستمعوا بهم على نقل أهم كتب اليونان والبيزنطيين العلمية والأدبية إلى السريانية والعربية»<sup>(٢)</sup>.

العرب والترجمون:

بمد أن تتقف العرب على يد هؤلاء الأسانذة وجها مهم

(١) زهر الآداب ص ٢٧ ج ١ - لأبن إسحق المصري القيرواني

(٢) Diehl yzuvec

(١) تاريخ الفكر العربي لاسماعيل مظهر.

هذه الوزير المروف ، سهل بن هارون ، وجاء في بعض الروايات<sup>(١)</sup> أن يحيى بن أبي منصور الموصل النجم المروف ، ومحمد بن موسى الخوارزمي صاحب الأزياج المشهورة والمصور الأرضي البديع الصنع ، كانا من خزنة بيت الحكمة المأموني . وكان علان الشموني ، والفضل بن توبخت ، وأولاد شاكر من الذين يترددون على هذه الدار إما للمطالعة ، أو للنسخ والترجمة والتأليف .

وفي هذا الدور أيضاً بمت المأمون إلى حاكم سقلية المسيحي بأمره بأن يرسل إليه جميع الكتب العلمية والفلسفية الموجودة في مكتبة سقلية الشهيرة ، فتردد هذا في إرسالها ، وضمن بها كل الفن ، ولما أُلح عليه الخليفة في الطلب جمع كبار رجالات الدولة واستشارهم في الأمر ، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله « إرسلها إليه فوالله ما دخلت هذه العلوم في أمة إلا أفسدتها » فعمل الحاكم بمشورته ، وهي إن دلت على شيء فلا تدل إلا على مقدار كراهية رجال الاكليروس للعلم ، وتفورهم من ظل العلماء .

وفي هذا الدور أيضاً جمع المأمون بعض حكماء عصره ، على صنعة الصورة التي نسبت إليه ودعيت بالصورة المأمونية<sup>(٢)</sup> صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره ، وعاصره وغاصره ، ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك ، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافية بطليموس ، وجغرافية مارينوس . وقد وضع له علماء رسم الأرض — وكانوا على ما يرويه الزهري سبعين رجلاً من فلاسفة العراق ، كتاباً في الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرف إلى البلاد التي أظلتها الراية العباسية ، هذا إلى عنايته بالفلك ، وفلكيه الفزاري أول من استعمل الاسطرلاب من العرب ، وعنى بالطبيعة والرياضيات فوق عنايته بالطب ومعرفة العقاقير والنبات والحيوان ، وفتح المأمون باب العقل والتفكير الحر على مصراعيه في جميع البحوث .

وفي عصر المأمون أيضاً تأسست أول مدرسة للترجمة في العالم العربي ، وكانت تتألف من حنين بن إسحق ، وابنه إسحق بن حنين ، وابن أخته حبيش الأعسم الممشقي وغيرهم . وقد أسس

(١) عصر المأمون ج ١ ص ٧٣٥ للدكتور أحمد فريد الرفاعي .

(٢) خطط الشام والحصارة العربية ج ١ ص ٢١٣

لمحمد كرد علي وعصر المأمون ج ١ ص ٣٢٦ .

إلى دراسة الحضارتين : اليونانية والرومانية دراسة مستقلة ، واستخراج أهم روايتهما التي قد تفيد في بناء حضارتهم . فكفكفوا على دراسة المؤلفات القديمة ، واجتهدوا في تفهيمها وشرحها ثم علقوا عليها ذيو لا ضافية ، ظهر فيها طابع المبقرية الاسلامية ، وعدلوا فيها ونقدوها ، وزادوا من عندهم أشياء جديدة ، وكان لهم نظر صائب في إجازة الفث من السمين ، والوضع من الأصل . ومن الذين اشتهروا في ميدان الترجمة كان خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان<sup>(٣)</sup> المروف بحكيم آل مروان ، فقد ترجم كثيراً من كتب الفلاسفة ، ولا سيما كتب علوم الطب والنجوم والكيمياء والآلات ، والصناعات من اللسان اليوناني والقبطي والسرياني « وكانت الترجمة أحياناً من اليونانية إلى العبرانية ، ومن العبرانية إلى السريانية » ويقال إن خالداً هذا كان أول من أنشأ دار كتب في الإسلام ، وقد أنشأها في دمشق<sup>(٤)</sup> .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز ، ترجم كتاب الطب الذي ألفه أهرن بن أعين ، إلى اللغة العربية بأمر هذا الخليفة الصالح<sup>(٥)</sup> . ويقسم بعضهم تاريخ الترجمة عند العرب إلى قسمين : أما الأول فيبتدىء من ١٣٢ هـ — ١٩٨ هـ أي منذ بداية خلافة السفاح إلى خاتمة عصر الأمين ، وفي هذا العصر ظهرت المبقرية العربية واضحة جلية . لا سيما في الكتب التي ترجمها عبد الله ابن المقفع إلى العربية .

### العصر المأموني :

أما القسم الثاني من تاريخ الترجمة عند العرب فيبتدىء بتسم المأمون ذروة الخلافة ويمر بالمصر المأموني ، ويضاهي هذا العصر في تاريخ الحضارة العربية ، بتقدم العلوم فيه وازدهارها ، عصر بركليس في أثينا . وأهم ما يمتاز به هو إنشاء بيت الحكمة التي أقامها الخليفة المأمون في بغداد ، جمعت في خزائنها أشهر الكتب العلمية القديمة ، وضمت بين جدرانها كبار المشتغلين بالعلوم والفلسفة والنقل . وكان يتولى المهيمنة على إدارة دار الكتب

(١) خطط الشام ج ٤ ص ٢٠ لمحمد كرد علي .

(٢) الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ١٦٤ .

(٣) تاريخ دمشق : لابن صاكر .

على غاية ما أمكن ، ثم حضَّ الناس على قراءتها ، ورغبهم في تعليمها ، وكان يخلو بالحكام وبأنس بمناظرهم ويلتذ بمذاكرتهم علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ومحجته من عباده ؛ وأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة وزهدوا فيها يرغب فيه الصين والترك ومن نزع مزعهم من التنافس في دقة الصناعة العملية والتباهي بأخلاق النفس ، والتفاخر بالتقوى إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها ، وتفضلهم في كثير منها ، فلهذا السبب كان أهل العلم في كل زمان هم مصابيح الدجى ، وسادة البشر ، وأوحشت الدنيا لفقدهم .

وقد بلغ من اهتمام الأُمون بالعلوم وحنه على طلبها أن أصبح يضرب به المثل في عظم الحركة العلمية ، حتى لقد مثله « تولد كره » بأنوشروان وغيره من رسل الثقافة العامة .

يقول الدكتور طوطح في رسالته الإنجليزية عن حالة التعليم عند العرب : « إنه بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكياً على مطالمة رسائله مع آرابه في مدرسة القصر كان الأُمون يعالج الفلسفة ومناقشة أفضيتها هناك في بندا . وقال إن الأُمون أوفد عميد بيت الحكمة إلى بلاد اليونان لنقل حكمة اليونان وعلوم اليونان إلى اللغة العربية<sup>(١)</sup> .

على أنه ليس في وسعنا أن نصور عصر الأُمون الذهبي في مثل هذه الكلمة المجلى ، وحسبنا أن نفتح الكلام فيه بمبارة السير وليام موريز<sup>(٢)</sup> الموجزة اليلينة إذ يقول : لقد كان الأُمون عاملاً من عوامل النهضة العلمية ، على حين كان الملوك المعاصرون له في أوربا في الدرك الأسفل من الجهالة ، ولقد كان عصره يحاكي عصر بركليس في أئينا من جميع الوجوه .

#### الجامعات العربية :

وقد أنشأ العرب في فتوحهم عدة جامعات كبرى ، وكانت جامعاتهم في البصرة والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة وبلرم وسالرنو وأشبيلية تنصُّ بالعلماء والمعلمين الذين كانوا يقصدونها من أقصى أطراف العالم الغربي الأوروبي ، وفي عهد الخلفيتين : عبد الرحمن الثالث والحكم بن عبد الرحمن ، بلغت مدارس قرطبة وحدها سبعمائة وعشرين مدرسة<sup>(٣)</sup> ، وكان فيها إلى جانب هذه

الأُمون هذه المدرسة في بندا ؛ فقامت خير قيام بنقل جميع المتون اليونانية المشهورة إلى اللسان العربي ، وكانت هذه المدرسة أيضاً تشرف على إصلاح جميع ما ينقله الغير إلى اللسان العربي<sup>(٤)</sup> . ومن الكتب التي ترجمها وعلق عليها حنين بن إسحق بأمر الخليفة الأُمون : كتاب الإيساغوجي لفرفور بوس وارمانوطيقا لأرسطاطاليس ، وجزءاً من الأناطيقا وجزءاً من الميتافيزيقا ، وتلخيصات نقولوس الدمشقي وتعليقات الاسكندر الأفروديسي والجزء الأعظم من مؤلفات جالينوس ، وديوشقورس وبولس الأجنيطي ، وأبقراط .

ويرى أن الأُمون كان يعطيه من الذهب<sup>(٥)</sup> زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل . وقال أبو سليمان المنطقي إن بني شاعر ، وهم محمد وأحمد والحسن كانوا يرزقون جماعة من السُّفلة : منهم حنين بن إسحق ، وثابت بن أبي قرة وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة .

وكان يتمتع حنين بن إسحق بمكانة<sup>(٦)</sup> سامية عند خلفاء بني العباس ، إذ أحلوه منزلة سامية من الاجلال والاحترام ، وكان أبوه صيدلياً في جند يسابور<sup>(٧)</sup> ، وثقفه في بندا جيرائيل ابن بختيشوع واشتهر في زمن الأُمون وعاش إلى زمان التوكل . وقد ترجم أبوه إسحق بن حنين مقالة أرسطوطاليس في الروح ( De Anima ) ، وقد علق عليها فيما بعد الأفروديسي ، وتعد هذه الترجمة النادرة اليوم من أهم المراجع لدرس الفلسفة في عصرنا الحاضر ، ويمثل الأديب الأستاذ إسماعيل مظهر هذه الظاهرة بأجواء الفكر في الأزمنة الحديثة إلى درس البسيكولوجيا وابعاده عن درس المنطق .

يقول القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي : « ... ثم لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبد الله الأُمون بن هارون الرشيد تم ما بدأ به جدُّه المنصور ، فأقبل على طلب العلم في مواضعه ، وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة فبعثوا إليه بما حضرم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس ، وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة فاستجاد لها مهرة الترجمة ، وكلفهم إحكام ترجمتها . فترجمت له

(١) تاريخ الفكر العربي ص ٢٣

(٢) عصر الأُمون ج ١

(٣) تاريخ الفكر العربي

(٤) أخبار الحكماء ص ٢٤٨

(١) عصر الأُمون ج ١ ص ٢٩٤

(٢) Colliphates, by Sir. W. Muir

(٣) Oriental of history, H. G. Wells :

## بعد الوداع . . .

للاستاذ محمد عبد الرحيم إدريس

بعد ذلك الوداع سرتُ وحيداً أذرعُ الأرضَ مستهماً شريداً  
يا لبؤس الوداع يُطلقُ في القلبِ اضطراباً وفي الخلقِ تشييداً  
يا لثلك الكأسِ المريرة أحسو ها برغى وأثنى عرُبيداً  
يا لسخر الأقدارِ عند وداعى تسأل القلبِ ابنِ عمى وحيداً!  
وتمدُّ الديارَ لى وكأني سألقي بها حبيباً جديداً  
كلُّ دارٍ ترور عنى وتثنى أى دار تضمُّ هذا الطريداً؟  
كلُّ دارٍ ما لم تكن أنت فيها ظللُ يسقمُ الفؤاد المميذاً  
كل دار تضيقتنى وحيداً أطممتنى الأشجان والتشييداً

\*\*\*

يا رياح الشتاء هذا شرعى قد تراهي على يدك شهيداً  
أبديه عن كلِّ شطِّ عزاءٍ واقذفيه بالياس جهماً عبداً  
أسلمية إلى الباب المدوى واطرحيه عن الحياة بعيداً  
أمطريه أسى وظلمة ليبلر وهيبه صواعقاً ورعُرداً  
أو دعيه يمضى إلى الممّ طوعاً إنه عن صخوره لن يميدا  
واحلى للفناء قلبى وسبى

فوق هذا الصبأ الوريف الوعيدا

وابدى عن فى كئوس دموى

فلقد أرتوى وأمضى سميذاً

\*\*\*

بعد هذا التوى دفتُ بنفسى أملاً كنتُ اشتعى أن أرودا  
كنتُ أرجواناً لافراق على الدهر بغير الردى عيوساً مريداً  
كنتُ أرجو حتى غلاب النينا تذكرى تُضنى علينا أخلودا  
غير أنى أرى سراب الأمانى ثغماً للقراق كان زهيذاً

(الأسكندرية) محمد عبد الرحيم إدريس

المدارس أيضاً مكتبة حافلة يقال إنها حوت خمسمائة ألف مجلد .  
يقول دوزى<sup>(١)</sup> لم يكن في كل الأندلس أبى واحد يوم  
لم يكن في أوروبا من يلم بالقراءة والكتابة إلا العليقة العليا من  
التسوس ، وكان العلماء والأدباء والفلاسفة فيها يختلفون إلى  
مختلف الجماع - كالجامع العلمية اليوم - للتفاهم والمناظرة .

وقد كان طلبة العلم من مسيحي أوروبا يفدون أفواجا على  
جامعة قرطبة لتلقى العلم فيها ، وعن طريق هذه الجامعة الشهيرة  
انتقلت الفلسفة العربية إلى مختلف أقطار أوروبا وظهر أثرها واضحاً  
بليغاً في جامعات باريس واكسفورد ، وإيطاليا الشمالية وسائر  
أقطار أوروبا الغربية<sup>(٢)</sup> ومن الذين تأثرت الحركة الفكرية في أوروبا  
ببعضهم ؛ كان أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد مولود  
قرطبة ؛ فقد أتى هذا المبقرى الفذ في الفلسفة الطبيعية وفي المادة  
والقوة ، وقدم العالم ، والطب والرياضات والفلك ؛ وعدل تعاليم  
الفيلسوف أرسطاطاليس الفلسفية وفصل بها بين اللاهوت والعلم  
غضبه قومه كافراً ونيزه بعضهم ولكن « لاوى بن جرسون »  
ترجم كتاباته إلى اللاتينية وشاركه في ذلك ابن زبون فوصلت  
كتابات ابن رشد الفيلسوف العربى إلى العالم اللاتينى سنة ١٢٥٠  
فاستند إليها الطبيعيون ، والعلماء ، والفلاسفة ، والاشتراكيون  
واعتمدها دانس سكوتش كما اعتمد أرسطو ؛ وحتى قال بعض  
علماء الغرب . إنما ابن رشد كان خيرة أوروبا ، وقد رسخت قدمه  
في جامعات شمال إيطاليا ثلاثاً مائة عام ، ومن أتباعه بطرس  
أبو تيمس وجون جندين وأوربانس في بولونيا ، وولس في فينيسيا  
سنة ١٤٢٨ م ، وكاجاتانوس النيبسى حتى أن الفيلسوفة السيدة  
كسندرا فيدال دافمت عن ابن رشد<sup>(٣)</sup> ، وقد تسربت فلسفته  
أيضاً إلى جامعتى بولونيا وبدوى<sup>(٤)</sup> .

ومن مشهورى العرب والإسلام الذين نبغوا في هذه المدارس  
أيضاً نذكر الطيب ابن سيناء ، والفيلسوف الفارابى ، وابن باجه ،  
وسنعود لدراستهم في غير هذا السدد وفي غير هذا المكان .

تحليل مجمع الطوال ( يتبع )

(١) Dozy ; Hist des Mus . d Espagne

(٢) تاريخ المسلمين في أسبانيا : فوزى و . مختصر التاريخ ولز .

(٣) ١ - المنصرفون . ب - بحث جيلر .

(٤) فلسفة ابن رشد و . دائرة المعارف البريطانية